الحُجَجُ المؤسِّسَةُ لبنيةِ الواقعِ في ديوانِ بشَّارِ بنِ بُرْدٍ "دراسة تداولية"

مستل من رسالة دكتوراه بعنوان :

آليـــات الخطـاب الحجـاجي في ديوان بشار بن برد "دراسة تداولية"

إعداد:

ايهاب خالد سعد الشرقاوي

المدرس المساعد

بقسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن

تحت إشراف

أ .د . محمد حسن عبد الله أ .د . ربيع عبد العزيز

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن

كلية دار العلوم – جامعة الفيوم

مستخلص:

لقد استعان بشار بن برد بمجموعة من الحجج الاتصالية للتعبير عن رؤاه ومواقفه من الحياة والناس من حوله؛ فوظف الحجج الاتصالية لوصل العناصر المتباينة وهيكلتها. وكان من بينها "الحجج المؤسسة لبنية الواقع"، التي تشمل: الشاهد، والمثل، والنموذج، والتمثيل، وهي عناصر تؤسس الواقع وتبنيه، فتكون مؤسسة للواقع.

وقد خلص البحث إلى بعض النتائج؛ منها: أن المرور في "الربط السببي" يحدث في اتجاهين؛ من السبب إلى النتيجة، والعكس، لاستناد بشار إلى فاعلية عنصر المفاجأة، وكذلك استعان برموز معلومة لدى المخاطب، غير أنه لم يكن يتوقع توظيفها في اللحظة الآنية، كما نلاحظ اتكاء بشار على "الشاهد" بوصفه منطلقًا سببيًا، وكذلك ظهور القيمة الحجاجية للتمثيل في الربط بين العناصر، وقيامها على المشابهة بين حالتين استنادا إلى القياس والاستنتاج؛ مما يقوي الصلة بين عملية التداعي واستنباط المعنى.

abstract

Bashar bin Burad used a set of communication arguments to express his visions and attitudes towards life and the people around him. He used communication arguments to connect and structure the disparate elements. Among them were the "arguments establishing the structure of reality", which include witness, proverb, model and representation. The research concluded some results؛ Including: that passing through the causal link occurs in two directions; From the cause to the result, and vice versa, Bashar relied on the effectiveness of the element of surprise, so he used symbols known to the interlocutor, but he did not expect to employ them in the immediate moment, Bashar relied on the witness as a causal starting point, the emergence of the argumentative value of representation in linking the elements, and its basis on similarity between two cases based on analogy and conclusion; Which strengthens the link between the association process and the elicitation of meaning.

توطئة:

لعل أشهر تصنيف للحجج ما قدمه "بيرلمان" (Perelman) و"تيتيكاه"، (Tytica) وعرضه "عبد الله صولة"؛ حيث قام الباحثان بتصنيف تلك الحجج إلى مجموعة من الحجج الجامعة، التي تنقسم إلى : حجج اتصالية، وحجج انفصالية. ويقصد بالحجج الاتصالية: مجموعة الطرائق التي تصل بين العناصر المتباينة، وتقوم بهيكلتها في بنية واضحة من أجل تقويم أحد العناصر بالآخر، وتشمل: الحجج شبه المنطقية، والحجج المؤَسْسَة على بنية الواقع، والحجج المؤسسة لبنية الواقع.

والحجج المؤسِّسة لبنية الواقع، على الرغم من صلتها الوثيقة بالواقع، فإنها لا تقوم ولا تبني عليه، وإنما هي حجج تؤسس الواقع وتبنيه، أو على الأقل تكمله، وتظهر ما خفي من علاقات بين أشيائه، فتكون مؤسسة للواقع، كما تفيد في الربط بين الأحداث المعيشة والمتتابعة؛ حيث تجمع بين وقائع مترابطة زمنيًا، أو مكانيًا، أو رمزيًا، ويكون تأسيس الواقع عبر تقنيتين؛ الأولى: بوساطة الحالات الخاصة، والأخرى: بوساطة التمثيل[1]، فيستعين بهما المتلفظ لتأسيس واقعه.

٣/١ـ تأسيس الواقع بوساطة الحالات الخاصة:

هذا النوع هو القسم الأول من الحجج المؤسسة لبنية الواقع، وقد لخصه "بيرلمان" في "المثل" – و"التبيين" أو "الاستشهاد"– و"النموذج" . والهدف من التأسيس بهذه الحالات هو إثبات قاعدة أو تأسيسها؛ لتكون مقنعة للمتلقي[2] بفحوى الخطاب وغاياته.

٣/١/١ـ المثال:

يعد "المثال" المفرد المعزول أولى الحالات الخاصة التي تؤسس بنية الواقع، ويتم الاستدلال به حجاجيًا من أجل "تعميم حكم ما، أو فكرة معينة، فيتأسس الواقع على ظاهرة مفردة، يتم توسيعها بحيث تصبح حالة عامة، لا مجرد حالة خاصة"[3]؛

أي أنه انتقل من حالة مفردة إلى أخرى تماثلها فتدعمها وتوسعها بوصفها ظاهرة قريبة، ومنها قول بشار –معتدا بنفسه ثم بقومه– في النسيب بالرباب(٤):

أصـــونُ عـــن اللئـــام لبـــاب ودي ... وَأخْـــتَصّ الأَكَـــارِمَ باللُّبَـــاب

وَأيُّ فَتًـــى مـــنَ الْبَوغَـــاءِ يُغْـــني ... مقـــامي في المخاطـــب والخطـــاب

وتجمـــعُ دعـــوتي آثـــارَ قـــومي ... هـــمُ الأسـد الخـــوادر تحـــت غـــاب

وُلاَةُ الْعـــزِّ والشَّـــرَف الْمُعَلَّـــى ... يـــردون الفضـــول علـــى المصـــاب

حيث يتجه بشار إلى الاعتداد بنفسه في سياق من الفخر، فيؤكد قدرة الذات الشاعرة على أن تصطفي لودها من يستحقه من الكرام، وتبتعد به عن اللئام؛ **يقول: "أصونُ عن اللئام لباب ودي"**، ويدعم دعواه بحجة المثال السابق له في هذا، فيستحضر صورة قومه ومواقفهم؛ يقول: **"وتجمعُ دعوتي آثارَ قومي"**، فهم مثل الأُسْد المتربصة، كما بدر من قوله: **"همُ الأسد الخوادر"**، ولهم العزة والشرف والكرامة.

ومن اللافت للنظر أنه انتقل من الحالة الخاصة –تجربته الشعرية بوصفه مثالا فرديا معزولا– إلى العام، وجل الشعر العربي يترع إلى اتخاذ الحالة الخاصة دعامة لتثبيت الآراء وتدعيم الأفكار وتوسيعها، فنجد بشاراً يدعم حجته ويثبت حالته، ثم ينتقل بالخاص إلى العام، فمروره من تجربة إلى تجربة يبني واقعا عاما جديدا لصالح قومه أيضا؛ فمن جانب يستند إلى عزهم، من جانب آخر بنى هذا العز وأكده، فهو مثلهم.

٣/١/٢ـ الشاهد أو التبيين:

يعد "الشاهد" من الحجج المؤسِسة للواقع، ويأتي هذا الشاهد من أجل إثبات قاعدة، أو تدعيم القول بتأكيد درجة صدقه، ويمكن أن "نسميها التقنيات أو الآليات النقلية، إنها أساليب تعتمد على نقل المحاجج الشواهد"(٥)، التي تقوي رأيه استنادا لقوة مصدرها، وفي المقابل تدحض حجج الخصم وتردها.

ومن الدارسين من سمَّاها "حجة الدليل"، أو "الحجج الجاهزة"، أو "الشواهد"، ومن ذلك استعمال النصوص الدينية، وأقوال السلف، والحكم والأمثال؛ فهي تعلو الكلام العادي درجة، مما يجعلها ترقى في السلم الحجاجي إلى ما هو أرفع، مما يترتب عليه ترفع ذات المخاطب إلى درجة أعلى، بعد أن منحتها قوة عند التلفظ بخطاب ذي بعد سلطوي، فيتبوأ المتلفظ بخطابة مكانة عليا(٦)، برغم أنها من (نقوله) وليست من (إنتاجه)، ومن ذلك توظيفه للشاهد القرآني الذي يعد تقنية حجاجية ذات صبغة مقدسة، تصبغ الخطاب بالهيبة والقوة والإقناع.

ومما احتج فيه بشار -بتوظيف الشاهد القرآني- قوله في النسيب (٧):

إن الغـــــواني لا يغـــــنين مســــــألةً ... لاَ تــــرى مثْــــل مــــا يسْــــلُبْنَنَا سَــــلَبَا

دعهــــنَّ للمســــهب الضــــليل مــــوردهُ ... يا قلب كل امرئ رهــــنٌ بمــــا اكتســــبا

قدْ حَصْحَصَ الْحقُّ وانْجابــــتْ دُجُنَّتُــــهُ ... وعرَّض الــــدَّهْرُ شــــطْريْه لمــــنْ حَلَبَــــا

يقدم بشار نصحًا مفاده أن شيمة الرجال الشجاعة والعفو، أما الغواني فلا يتركن من سلبنه، ولا يقع في حبالهن إلا الضليل، وصروف الدهر ستكشف له، ولن تدع له شيئا دون أن تعرفه به، كالذي يحلب ضرع الناقة و لم يترك فيه لبنًا !! وبشار إذ يقرر ما سبق فإنه يشفعه بما يؤكده؛ حيث يستند إلى الطاقة الإقناعية للشاهد القرآني، وقد بدا ذلك في قوله: "**يا قلب كل امرئ رهنٌ بما اكتسبا**"، "**قدْ حَصْحَصَ الْحقُّ**".

فهذه الحجة تتكئ تماما على النص القرآني من قوله تعالى: **{كلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}** (الطور:٢١) وفي البيت الثاني على قوله تعالى: **{ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ}** (يوسف: ٥١)، باستخدام إستراتيجية الإشارة والتلويح، بتوظيف معنى الآية وبعض ألفاظها، مما يجعلها أنجع حجاجيا من التصريح بالنص، كما تؤكد حرص

الشاعر على دعم حجته وتقويته مذهبه بسلطة النص التي لا يمكن رفضها؛ لأنها استمدت قوتها من قوة مصدرها المقدس.

كما اتخذ بشار منطق "الشاهد" منطلقا سببيا ومبررا من ناحية، وشاهدا دينيا مقدسا له قوته من ناحية أخرى؛ لأنه يعي القيمة الإقناعية للشاهد الديني في التأثير في المخاطب؛ وذلك عندما "يتخذ منحى عاطفيا يركز على إثارة انفعالات المتلقي... فتغدو الإشارة الصريحة إلى بداية آية أو حديث بمثابة المنبه الذي قد يخرج المتلقي من انفعالاته، وتعصبه لآرائه، ويعيده إلى التفكير مرة أخرى في رأيه، والتراجع عنه، في ظل وجود سلطة دينية تخالف رأيه"(٨)؛ ليتخذ موقفا جديدا يتوافق مع غاية المتلفظ الذي دعم موقفه بمعان قرآنية.

بل إن بناء الملفوظ الحجاجي يعيد المتلقي –في لحظة بعينها– إلى (السياق الأصلي) للشاهد، ثم يعيده مرة أخرى إلى (سياق الخطاب)، فيستشعر المخاطب ما بين الموقفين من انسجام نفسي، ثم ينتهي إلى موقف أو نتيجة مشابهة لنتيجة (السياق المستدعى)، بعد أن انصهر الشاهد في السياق، وأصبح جزءا من احتجاج الشاعر.

يأتي الاستشهاد "**بالحديث**" بعد الشاهد القرآني مباشرة، من حيث القوة الحجاجية؛ إذ لابد لمنتج الخطاب من معرفته والاحتجاج به، وكان الصحابة والتابعون "يحتجون بالحديث، ويستدلون به في مواطن الخلاف والنزاع، فينقاد الجموح ويستسهل الصعب"(٩)، ومن توظيف الشاهد الحديثي قول بشار في الحياء (١٠):

يَعيشُ المرءُ ما استحيا بخَيْرٍ ... ويبقى العودُ ما بقيَ اللِّحاءُ

إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالي ... وَلَمْ تستحِي فافعَلْ ما تشاءُ

ففي سياق النصح يؤكد بشار قيمة "الحياء"؛ فالمرء يبقى بخير ما دام متصفا بهذه الصفة؛ مثل الشجرة التي يحفظها لحاؤها، وهذه خبرة نباتية علمية صحيحة؛ فاللحاء هو الذي يجري فيه غذاء العود فيكسبه نضرته، كذلك الحياء بالنسبة

للإنسان، ومن ثم فإن لخطاب بشار نجاعته الناتجة من أمرين؛ الأول: كون "الحياء" من القيم المتفق على فضلها، والنتائج النافعة المترتبة عليها، الآخر: دعمه لدعواه بأقوال تشكل سلطة مرجعية معترفا بها؛ حيث انتقل في البيت الثاني إلى ما يحتج به لصدق مذهبه في قوله: "**وَلَمْ تستحِي فافعَلْ ما تشاءُ**"، مأخوذا مما ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – من قوله: "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ"(١١).

فوظف الشاهد "الحديثي" بشكل شبه مباشر، مستندا إلى ما يتمتع به من قوة وقبول لا يتمتع بهما بشار ذاته، فالمخاطِب يدرك "أنه لا يتمتع بسلطة ذاتية لدفع الناس إلى فعل الخير، بيد أنه يتمتع بسلطة اجتماعية تؤهله لمعرفة الخطأ والصواب، واختيار الدليل الذي يؤيد صواب ما ذهب إليه أو خطأه"(١٢)، وهو ما فعله الشاعر؛ حيث وظف الشاهد بوصفه جزءا من متوالية حجاجية، جاءت دليلا مؤيدا لدعوى النص، ومعضدا لحجاجيتها بالقيمة الدينية التي تحظى بها الشخصية منتجة الشاهد في سياقه الأول، ومن ثم، فلا يكون هناك اعتراض على دعوى الشاعر.

ويأتي "المثال الشعري" ضمن الأمثلة المختارة التي وظفها بشار محتجا بها لمذهبه في فكرة ما، فيختاره، ثم يوجهه إلى الغرض الذي رُصد للاستدلال عليه؛ ذلك لأن "للشعر قوته في البناء اللغوي والمعرفي والإقناعي... أكسبته حجية قوية وفعالة في تحقيق الترجيح، وفي قطع الشغب، وفي إيقاع التصديق"(١٣) في نفس المتلقي.

كذلك يصنف "الشاهد الشعري" ضمن الوسائل غير الصناعية؛ أي أنها "حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مصادقة الناس عليها وتواترها"(١٤)، وكذلك من قدرتها على الاستمالة والتأثير والتحفيز والإقناع، فيصبح الشاهد ذا وظيفة أسلوبية حجاجية إقناعية، وكان بشار قد أدرك هذه القيمة، فاستعان بما ورد عن سابقيه من الشعراء، فقال في مدح "المهدي" (١٥):

وَرَكَّـــابَ أفْـــرَاس الصَّـــبَابَةِ والصِّـــبَا جرت حججاً ثم استقرت فمـــا تجـــري

مستندا فيه لشاهد من العصر الجاهلي، من قول "زهير بن أبي سلمى"، في مدح حصن بن خزيمة(١٦):

صَحا القَلبُ عن سلمى وأقصـــرَ باطلـــه وَعُرّيَ أفْـــرَاسُ الصِّـــبَا وَرَوَاحِلُـــهْ

فقد استهدى بشار طريقة زهير؛ الذي كان ممن اتصفوا بالزهد والحكمة في الوعي الجمعي العربي، حتى أصبح من المصادر العليا المسلم بما يصدر عنها، فاستعار زهير ملفوظ "**أفراس الصبا**"، وقاس عليه بشار فاستعار -بدوره- "**أفراس الصبابة**"؛ لرسم صورة اللهو ولهفتهما في الإقبال عليه، ثم رسما صورة الانقطاع عنه، فعبر زهير عنه بالملفوظ "**عري أفراس**"، في حين عبر عنه بشار بالملفوظ "**ثم استقرت**"؛ ليستثمر مكانة الشاعر الذي اشتهر بهذا التركيب الشعري؛ من أجل دعم أبياته بقوة مزدوجة، تتمثل في حجاجية القول والقائل، ومن ثم يسهل له التأثير في نفس المتلقي عامة، والمثقف بصفة خاصة.

ومنه قوله في مدح مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية(١٧):

إِذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ صَعَّر خدَّهُ مَشَيْنا إِلَيْه بالسُّـــيوف نُعاتبُـــهْ

الذي استهدى فيه قول الأخطل في هجاء قيس وأحلافها(١٨):

إذا الأصْعرُ الجَبَّارُ صعّرَ خـــدَّه أقمْنَا لَه منْ خَـــدِّه المُتصـــاعِرِ

فقد قصد كلاهما الفخر بصفة البطولة الفذة؛ فما من متكبر يتكبر عليها بجاهه، أو يميل بخده عنهما -حتى لو كان ملكًا- إلا قاتلناه حتى يعود إلى صوابه وسيرته الأولى. ولإقناع المتلقي بما يدَّعيه بشار، فإنه يستند إلى بيت الأخطل من أجل تأسيس واقع جديد لنفسه ولقومه، وجاء استناده على مستويين؛ أحدهما لفظي، والآخر معنوي، فوظف كلمات وردت بعينها في بيت "الأخطل"؛ مثل: "**إذا، الجبار، صعر، خده**"، وعلى صعيد المعنى، نجد بشارًا يقيم علاقة دلالية مع

بيت الأخطل الذي يفتخر بقومه[١٩]؛ كونهم لا يخضعون للمتكبرين حتى لو كانوا من الملوك.

من ثم، يكون الاستدلال بالشعر شاهد إثبات لموقف بشار ودعوته، والقول الشعري إنما "يستدعى كحجة مرجحة وكشاهد عدل خلال المنافرة والمخاصمة ... مراهنين على أثرها في الوجدان، وعلى إصابتها لمواطن حساسة في الوعي الحضاري الجمعي"[٢٠]، للمخاطب الذي يحترم الأثر الأدبي ويجل صاحبه.

إضافة إلى الآيات القرآنية والأحاديث والشعر، يدخل **المَـــــثَل** ضمن المقولات التي تعد شواهد في تراثنا العربي وثقافتنا الأدبية والنقدية، فهو استقراء بلاغي، وفي سياق تداولي، يصبح المثل "حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها"[٢١]، تبعا للغاية من الخطاب.

٣/١/٣ـ النموذج:

آخر نوع من الحالات الخاصة التي تؤسس لبنية الواقع، ما يعرف "بالنموذج"، ويقصد به: كل مثال نطرحه لأنفسنا أو نقترح اتباعه، وبهذا فإنه يمثل معيارًا . ومدار هذه الحالة على كل كائن يصلح أنموذجا يقاس عليه للحض على عمل ما اقتداء به، ومحاكاة له، ونسجا على منواله[٢٢].

والشاعر إذ يؤسس واقعه استنادًا لهذه الحالة، فإنه يصبغ القوة والهيبة على أنموذج معين، ويدعو إلى الاقتداء به، هذه القدوة "يجب أن يكون وجودها مؤثرًا في الحقيقة؛ لأن المحاجج بوساطتها يريد إيصال مسألة ما إلى الجمهور الكوني بهدف لفت انتباهه"[٢٣]؛ كون نموذجه ذاتا مؤثرة ولها حضورها البارز.

ومن ذلك قول بشار في أسماء ابنة الأشد[٢٤]:

لا تفـــش ســـرَّ فتـــاةٍ كُنْـــتَ تألفُهـــا إنَّ الكـــــريم لهـــــا راعٍ وإن تابـــــا

واسعدْ بما قال في الحلـــم ابـــنُ ذي يـــزنٍ يلـــهو الكـــرامُ ولا ينســـون أحســـابا

جَدُّ امْـرئ جَـارَهُ مـن كـلِّ فاضـحةٍ فاهْض بجـدٍّ تنـلْ جاهـاً وإكسـابا

حيث يقدم النصح لصاحبه مغلفًا بثوب من الحكمة؛ إذ يلفته إلى أنه من الحلم ألا يذيع ما أمنته عليه فتاة جمعته بها علاقة ألفة من قبل، وحتى تكتمل حجية هذه النصيحة، ومن ثم وجوب إثباتها، فإنه ينتقل إلى تصدير نموذج معلوم اتصافه بالحلم في كل خصاله وأفعاله، يراه الشاعر حقيقًا بالاقتداء والعمل بسيرته، وهو ابن ذي يزن ملك العرب باليمن في زمنها الجاهلي.

ويمكن أن نلاحظ -كذلك- أن بشارًا جعل هيبة النموذج أمرًا واقعًا مدركًا ومعلومًا لدى المتلقي، وليس على سبيل البناء الشعري التخييلي، وإلا لما جعل كلامه يجري مجرى المثل المعلوم، كما نلاحظ أن استدعاء النموذج جاء في موطن التوجيه والقيادة؛ أي "توجيه المتلقي إلى سلوك معين، وقيادته نحو موقف محدد"[٢٥]، وهو مما يؤكد الدور الحجاجي لحالة النموذج، ويقوي قدرته الإقناعية التي يعتمدها المتكلم لإثبات دعواه وتأسيس واقعه، استنادًا إلى هذا النموذج المقتدى به في السياق الاجتماعي آنذاك.

على النقيض مما تقدم: نجد ما يعرف بحجة "**عكس النموذج**"، التي عُرفت -أيضًا- بمصطلح "النموذج النقيض" أو "النموذج المضاد" أو "النموذج المعاكس"، وهو مثال لما ينبغي رفضه، ويجب عدم اتباعه، فيكون الحض لا على الاقتداء، وإنما على الانفصال عن الشخص الذي يمثل عكس النموذج[٢٦]، وإذا كان بشار قد رسم النموذج الذي ينبغي الاقتداء به، فنراه في أبيات له يرسم النموذج في الشؤم، بوصفه نموذجًا مضادًا ومعاكسًا لما ينبغي الاقتداء به، أو السير على منواله؛ يقول في تعنيف سعيد بن زريق على موالاته لحماد عجرد[٢٧]:

أَظُـنُّ سَـعِيداً كائنـاً لِصَـدِيقِهِ كـداحسٍ عـبسٍ أو كبكـر ثمـود

وما ابنُ زُرَيْـقٍ مُقْصِـرٌ دُونَ ضَـرْبَةٍ علـى أنفـه مـن ضـامن لمزيـد

حيث جعل بشار سعيدًا نموذجًا مضادًا، فشبهه بفرس عبس، "**داحسٍ عبسٍ**" و"**ناقة ثمود**" التي ذبحها قُدار بن سالف؛ من حيث إنهما نذيرا شؤم وعذاب على قومهما، كذلك كان سعيد بن زريق الذي والى حماد عجرد وأبناء يزيد، فأصبح لِصَدِيقه مثل تلك الفرس التي أشعلت حربا مهلكة بين عبس وذبيان، أو كناقة سيدنا صالح التي كان عقرها سببا في هلاك ثمود، فكان ذلك نذيرًا بنهايته المشؤومة.

لا شك أن انخراط النموذج المضاد أو عكس النموذج في جنبات النص الشعري بهذه الكيفية يقود المتلقي لاتخاذ موقف من سعيد بن زريق؛ سواء أكان موقفًا نفسيًا تمثل في نبذ مثل هذه المواقف، أم كان موقفًا سلوكيًا يتمثل في تعديل السلوكيات، وفعل ما هو صواب وصحيح.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، أن حجتيّ "النموذج"، و"النموذج المضاد" تستمدان قوتهما الحجاجية :

أولًا- من صلتهما الوثيقة بالمجتمع .

وثانيًا: من قدرتهما على استحضار النسق المقارني؛ أي عقد مقارنة ذهنية آنية -يستحضرها عقل المتلقي أثناء قراءة النص- بين النموذج والنموذج المضاد الذي يعرفه المتلقي .

وثالثًا: التركيز -غالبًا- على فضيلة واحدة أو نقيصة واحدة (**حلم ابن ذي يزن، شؤم سعيد**) يستفيض فيها المتكلم حتى يستطيع إقناع المخاطب بها.

وأخيرًا: الدخول بالنموذج -أو عكسه- إلى المتلقي مدخل النصح والحكمة التي خبرها الشاعر من تجاربه الحياتية، وهو مما يجعلها محل تصديق واقتناع.

٣/٢ـ تأسيس الواقع بوساطة التمثيل:

التمثيل **لغة** : مأخوذ من مِثل، وهي "كلمةُ تَسْوِيَةٍ، يقال: هذا مِثْله ومَثَله، كما يقال شِبْهه وشَبَهُه... والمِثْل الشِّبْه، يقال مِثْل ومَثَل وشِبْه وشَبَه بمعنى واحد"(٢٨)؛ أي النظير المماثل.

والتمثيل **اصطلاحا**: هو المركب الذي يستعمل فيما "شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه؛ أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى، ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من أوجهه"(٢٩)، مما يؤهله لأن يدرج – عند بيرلمان (Perelman)– ضمن أهم الوسائل الحجاجية التي يتكئ عليها منتج الخطاب.

فالقيمة الحجاجية للتمثيل تبدو من ربط العناصر بعضها ببعض –كما يراه عبد القاهر – فإذا جاء في "أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها... وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر"(٣٠)؛ ذلك أن "حجة التمثيل" إنما تقوم على مشابهة بين حالتين استنادا إلى القياس؛ لاستنتاج نتيجة قائمة على المماثلة .

ومن احتجاج بشار بالتمثيل قوله في هجاء منجاب بن أبي عيينة(٣١):

لا تحمدنَّ أبا حربٍ بأسرته ... قدْ يثْبُتُ اللَّيْثُ والْخنْزيرُ في الْغاب

مُحمَّدٌ تائهٌ منْ فرْط جِنَّتِهِ ... مفتاحُ غيٍّ لقومٍ أهلِ أحساب

حيث ينهى بشار عن مدح منجاب "**لا تحمدنَّ أبا حربٍ بأسرته**"؛ أي استنادًا إلى سيرة أهله؛ لأن الأسرة قد تجمع العظيم والخسيس، ثم يؤسس لهذا الواقع محتجًا بتقنية التمثيل التي تقرب الصورة إلى أذهان المخاطبين، فيستعين بصورة الغابة التي تجمع داخلها أجناسًا متفاوتة القيمة من الحيوان، كما بدا من قوله: "**قدْ يثْبُتُ اللَّيْثُ والْخنْزيرُ في الْغاب**"؛ أي أن الغابة التي يقطنها الليث يقطنها الخنزير كذلك .

ومن الاحتجاج بالتمثيل قول بشار في سعدى(٣٢):

أسُعَادُ جُودِي لا شُفِيتُ سُـعَادَا وصلي بودك هائمـاً معتـادا

ثم في الموضع نفسه يقول:

وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِـنَ الضِّـعِيفَةِ إِذْ بَـدَتْ تَثْنِـي أسَـامَةَ فَـانْثَنَى وَانْقَـادَا

أَسَـدٌ تَصَـيَّدَهُ غَـزَالٌ شَـادِنٌ مَا اصْـطَادَ قَبْلَـكِ شَـادِنٌ آسَـادَا

هنا – في الأبيات – نلاحظ أن بشارًا احتج لموقفه بطريقة "السلم الحجاجي"؛ وذلك من أجل تسجيل حد أقصى من التأثير في المخاطب، فبعد أن طلب من سعدى أن تجود عليه بالوصل مستخدمًا المركب الإنشائي الطلبي في قوله: "**أسُعَادُ جُودِي**"، نجده يوظف الصورة التمثيلية المركبة التي تحولت بالملفوظات الحجاجية إلى ما يشبه القياس الشعري(٣٣)، الذي يربط بين موقفين عن طريق التماثل القائم بين حيثياتهما.

من ثم استطاع –بذلك– أن يقرب صورته التي تحمل معنى الاستسلام "**تَثْنِي أسَامَةَ فَانْثَنَى وَانْقَادَا**"، والمضامين المقصودة من وراء الخطاب، عبر تشكلات صورية تتفاعل مع ذهن المتلقي الذي يربطها بوضعيات يعلمها جيدًا، متمثلة في قوله: "**أَسَدٌ تَصَيَّدَهُ غَزَالٌ شَادِنٌ**"، فالمعلوم لدى المتلقي –عكس الصورة القائمة– أن الأسد يصيد الغزال ولا يصاد، أما أنه قد بلغ هذه الحالة من الرضوخ والتسليم، فإن المتلقي سيبني موقفه مجددًا انطلاقًا من هذا التماثل، من ثم، فإنه يقتنع بما أراد الشاعر إيصاله من المعنى ، كما تؤدي المفارقة وظيفتها في إثارة الدهشة والعجب لمخالفة المعروف والمألوف من الطبائع.

مما سبق: تبين لنا كيف أفاد "بشار بن برد" من الحجج التي تنتجها الحالات الخاصة، والتمثيل، في تأسيس واقعه المراد من خطابه، وكذلك إظهار ما خفي من

علاقات هذا الواقع، فأقام –بوساطتها– ما لم يتوقعه المتلقي بين عناصر هذا الواقع المسلم به، أو المشاهد المألوف.

الخاتمة: وبها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، على النحو الآتي:

١– عبر "بشار" بالحجج المؤسسة لبنية الواقع، واستند فيها إلى نتائج مسبقة أتبعها بالسبب الذي يبررها، وهو ما يؤكد أن المرور في الربط السببي يحدث في اتجاهين: من السبب إلى النتيجة، ومن النتيجة إلى السبب، داخل تسلسل الأحداث الواقعية التي يربطها رابط سببي.

٢– عمد "بشار" إلى فاعلية عنصر المفاجأة، فاستعان برموز معلومة لدى المخاطب، غير أنه لم يكن يتوقع توظيفها في اللحظة الآنية من عمر الخطاب، لكنها مثلت أبرز الخطط الحجاجية في مجالي الملفوظ والمكتوب.

٣– اتخذ "بشار" الشاهد منطلقًا سببيًا ومبررًا، فالشاهد الديني –مثلًا– مقدس وله قوته في التأثير على المخاطب؛ حيث يعود بالمتلقي إلى السياق الأصلي للشاهد، ثم يعيده مرة أخرى إلى سياق الخطاب، فيستشعر المخاطب ما بين الموقفين من انسجام، فينتهي إلى موقف أو نتيجة مشابهة لنتيجة السياق المستدعى.

٤– احتجاج "بشار" بالمثل يعد اختزالًا لتجارب إنسانية تبناها الشاعر؛ من أجل الإقناع بفكرة قريبة وموقف مماثل، ليحذر من عاقبة مماثلة.

٥– استمدت حجتا النموذج، والنموذج المضاد قوتهما الحجاجية من صلتهما الوثقى بالمجتمع، ومن قدرتهما على عقد مقارنة ذهنية آنية في عقل المتلقي بين النموذج والنموذج المضاد الذي يعرفه المتلقي.

٦– ظهرت القيمة الحجاجية للتمثيل في الربط بين العناصر، وقيامها على المشابهة بين حالتين بالاستناد إلى القياس والاستنتاج؛ مما يقوي الصلة بين عملية التداعي، واستنباط المعنى المراد من إقامة حجة التمثيل.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

- الأخطل (غياث بن غوث التغلبي): الديوان، شرح: مهدي ناصر الدين، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٨٣/٦٠)، ط١، دار ابن كثير، بيروت، ٢٠٠٢م.
- بشار (بشار بن برد): الديوان: تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٧م .
- زهير بن أبي سلمى: الديوان، شرح: حمدو طماس، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥م.
- ابن منظور: لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٤١٤ه.

ثانيا : المراجع التراثية :

- الجرجاني (عبد القاهر): أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، القاهرة، ١٩٩١م.
- الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، ط٥، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.
- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م.

ثالثا : المراجع الحديثة والمعاصرة :

- حيدر رضا كريم، نردين رضا كريم: بلاغة تقنيات الحجج الاتصالية في شعر ابن

زمرك الأندلسي؛ مقاربة تداولية، مجلة كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ذي قار، المجلد الثامن، العدد الثاني، ٢٠١٨م.

- سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي؛ بنيته وأساليبه، ط٢، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١١م.
- سلمان أحمد محمد أبو غنيم: التناص في شعر بشار بن برد، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمَّان، ٢٠١١م.
- عبد الرحمن أحمد السبت: حجاجية المناظرات الأدبية: المناظرة بين السيف والقلم لابن نباتة المصري؛ مقاربة أسلوبية، مجلة العلوم العربية، جامعة القصيم، مج ١١، ع٢، ٢٠١٧م.
- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، ط١، دار الأمان، الرباط، ٢٠١٣م.
- عبد الله صولة: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ط١، مسكلياني، تونس، ٢٠١١م.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري: آليات الحجاج وأدواته، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته؛ دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة"، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١٠م.
- فيليب بروتون، جيل جوتييه: تاريخ نظريات الحجاج، ترجمة: د. محمد صالح الغامدي، ط١، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ٢٠١١م.
- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي؛ مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، ط٢، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٢م.

الهوامش والإحالات :

الهوامش والإحالات :

(١) انظر: عبد الله صولة: في نظرية الحجاج؛ دراسات وتطبيقات، الطبعة الأولى، مسكلياني للنشر، تونس، ٢٠١١م، ص٥٤، ٥٦.

(٢) انظر: فيليب بروتون، جيل جوتييه: تاريخ نظريات الحجاج، ترجمة: د. محمد صالح الغامدي، الطبعة الأولى، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ٢٠١١م، ص٥٠.

(٣) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي؛ بنيته وأساليبه، ط٢، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١١م، ص٢٣٦.

(٤) بشار: الديوان: تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٧م ١/ ٢٧٤. والأبيات من بحر الوافر.

(٥) عبد الرحمن أحمد السبت: حجاجية المناظرات الأدبية: المناظرة بين السيف والقلم لابن نباتة المصري؛ مقاربة أسلوبية، مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، المجلد الحادي عشر، العدد الثاني، ٢٠١٧، ص٧٠٤.

(٦) عبد الهادي بن ظافر الشهري: آليات الحجاج وأدواته، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته؛ دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة"، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١٠م ١٢٨/١، ١٢٩.

(٧) بشار: الديوان ٣٧٠/١. والأبيات من بحر البسيط.

(٨) عبد الرحمن أحمد السبت: حجاجية المناظرات الأدبية: المناظرة بين السيف والقلم لابن نباتة المصري؛ مقاربة أسلوبية، ص٧٠٦، ٧٠٧.

(٩)القلقشندي (ت٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م ٢٠٢/١.

(١٠) بشار: الديوان ٤/ ٧. والبيتان من بحر الوافر.

(١١) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري(ت ٢٥٦هـ): صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٨٣/٦٠)، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٨٦٣.

(١٢) عبد الهادي بن ظافر الشهري: آليات الحجاج وأدواته، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته ١٢٩/١.

(١٣) عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، الطبعة الأولى، دار الأمان، الرباط، ٢٠١٣م، ص٢٣٤.

(١٤) محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي؛ مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الطبعة الثانية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٢م، ص٩٠.

(١٥) بشار: الديوان ٣/ ٢٧٤. والبيت من بحر الطويل.

(١٦) زهير بن أبي سلمى: الديوان، ص٥١. ، شرح: حمدو طماس، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥م، والبيت من بحر الطويل.

(١٧) بشار: الديوان ١/ ٣٣٤. والبيت من بحر الطويل.

(١٨) الأخطل (ت٩٢ه): الديوان، شرح: مهدي ناصر الدين، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م، ص١٣٣. والبيت من بحر الطويل.

(١٩) انظر: سلمان أحمد محمد أبو غنيم: التناصف س شعر بشار بن برد، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمَّان، ٢٠١١م، ص١٣٠.

(٢٠) عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، ص٢٣٩.

(٢١) محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي؛ مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، ص٨٢.

(٢٢) انظر: عبد الله صولة: في نظرية الحجاج؛ دراسات وتطبيقات، ص٥٥.

(٢٣) حيدر رضا كريم، نردين رضا كريم: بلاغة تقنيات الحجج الاتصالية في شعر ابن زمرك الأندلسي؛ مقاربة تداولية، مجلة كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ذي قار، المجلد الثامن، العدد الثاني، ٢٠١٨م، ص٥٠.

(٢٤) بشار: الديوان ١/ ٢٣٣، ٢٣٤. والأبيات من بحر البسيط.

(٢٥) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي؛ بنيته وأساليبه، ص٢٤٥.

(٢٦) انظر: فيليب بروتون، جيل جوتييه: تاريخ نظريات الحجاج، ص٥٤.

(٢٧) بشار: الديوان ١١٢/٣. والبيتان من بحر الطويل.

(٢٨) ابن منظور: لسان العرب، مادة "م ث ل"، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٤١٤ه.

(٢٩) القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .٢٠٠٣م، ص٢٣١.

(٣٠) الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٤م ص٤٢، ٤٣، ٤٤.

(٣١) بشار: الديوان ٣٨٥/١، ٣٨٦. والبيتان من بحر البسيط.

(٣٢) بشار: الديوان ١٢٢/٢. والبيت من بحر الكامل.

(٣٣) انظر: الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، القاهرة، ١٩٩١م، ص١٥.